الاغانى المصرية
بعض أمراض المجتمع

للأستاذ فايد العمروسى

الأغانى فى مصر صورة ناطقة لغرائز الشعب وميوله المكبوتة منها والطليقة، وهى تعبير صارخ عن إحساسه وذوقه ، ولكنها لا يمكن أن تكون صورة أو شبه صورة للحياة الفكرية الأدبية فى مصر ، بل هى أبعد ما تكون عن الانتاج الفكرى السليم وعن الأدب الرفيع .

وآفة الغناء عندنا يمكن أن ترجع إلى ثلاثة أمور :

أولها المؤلفون ، وثانيها الموسيقيون وبالتعبير الأصح الملحنون ، وثالثها الذوق الفنى للشعب .

أما المؤلفون فمعظمهم من المرتزقة الذين ليس لهم من الثقافة نصيب ، احترفوا تأليف الأغانى بالألفاظ العامية، ودسوا تحتها المعانى المرذولة الوضيعة، ونفثوا فيها سموم الأمراض النفسية التى تفسد النفس والروح ، وتحل الأخلاق وتحو الرجولة وتشوه سمات الشباب ، ولست بحاجة إلى سوق أمثلة من تلك الأغانى فكل فرد فى الأمة ذكرا أو أنثى ، متعلما أو غير متعلم يحفظ هذه الأغانى المسمومة عن ظهر قلب ، بل إنها لتنشيد بعضهم فى اليقظة والمنام ، وفى شغلهم وراحتهم وفى طريقهم ومنازلهم ، وهؤلاء المؤلفون كما يدعون ، والعابثون على الوجه الأصح يمرحون فى بحبوحة من الحرية بلا رقيب .

والموسيقيون أو الملحنون ! ! وكلمة "الموسيقى" كلمة عالية رفيعة ، لأن الموسيقى شخص موهوب صافى الحس والخيال معمور اللب، والروح بالمثل العليا وقداسة الإلهام . فالملحن هو الشخص الذى يمكن أن يوجد عندنا على أنه نادر أى ندرة. بعض هؤلاء أيضا من جراثيم الأمراض الاجتماعية الفتاكة ! إنهم ملحنون طالما لكل منهم يدان فى كل منهما خمس أصابع تحرك الأوتار كيفما اتفق وحيثما يكون !

إن التلحين هو تعبير الألحان الجميلة عن معنى المقطوعات الغنائية ، والملحن إن لم يكن له من طاقة إحساسه قوة كبيرة تحس المعانى ، وإن لم يكن له من ثقافته ما يدرك به هذه المعانى إدراكا عميقا ، وان لم يكن له شعور فنى يتذوق الفن . إن لم تكن فيه كل هذه القوى مجتمعة فسد فنه ، وكان فساد ألحانه فى روح الشعب أشد وأنكى من فتك الأمراض و بلاء الأدواء .

والذوق الفنى للكثيرين من أفراد الشعب . . . — وهنا لاضير على أن أقرر الحقيقة — إنه ذوق صالح جدا لمثل هذه الأغانى التى أعيبها ، ولمثل هذا التلحين لذى وصفته ، بل إنه ذوق لا يستساغ سوى هذه الأغانى الهزيلة ، ولا يطرب لسوى ذلك اللحن الفاسد المعيوب... وإن المصلح أى مصلح والناقد أى ناقد ليسير كل منهما بخطا واسعة المدى حتى يصطدم بالعقبة الخالدة وهى ذوق الجمهور الفنى ، وفى هـــذه النقطة فقط تفشل حملة الكتاب ويخيب رجاء الإصلاح .

ولو حددنا القول من غير توسع لقلنا : إن للكثيرين منا ذوقا فنيا رديئا غاية الرداءة ، أو هو ذوق لم تنقصه الثقافة والتهذيب . وهؤلاء معذورون فى هـذا كل العذر لأن الذوق موهبة من مواهب الإنسان ترقى برقيه وتنضج بنضوجه . وهو مرتبط كل الارتباط بحياة الشعب الفكرية من آداب وعلوم وفنون ، ولن يدعى مدع أننا خطونا فى الفنون خطوات واسعة تحقق لنا تربية الأذواق السليمة أو الإحساس الرفيع !

والمسئولون أولا وآخرا عن فساد هذه الأذواق أو ضعفها هم مؤلفو الأغانى وملحنوها ومغنوها ، والمحزن أن أرباب الأقلام من الشعراء والكتاب فى مصر لاصلة لهم بالتأليف الغنائى ولا بالمغنين بعد استثناء عدد قليل أو شاذ ! ! أهؤلاء عاجزون ؟ أم أنهم مترفعون ؟ الحق هو هذا وذاك ؛ فهم عاجزون لأنهم دفعوا إلى الملحنين روائع من أدبهم فلم يفهم الملحنون هذه الروائع ، وبالتالى لم يستطيعوا تلحينها ، لأن التلحين كما قلت هو فهم المعنى والقدرة على الإحساس به ، ولن يستطيع الملحن أن يضع موسيقى لمعان بعيدة عن عقله ، ولإحساس بعيد ورفيع عن طاقته المعنوية . والأدباء الكبار قد فشلوا أيضا . فشلوا لأن بضائعهم الأدبية فى السوق أولا غالية الثمن ، وثانيا جيدة العنصر رفيعة الجوهر ، وبجانب هذه البضاعة الجيدة بضائع أخرى رخيصة الثمن رديئة العنصر مريضة الحس ، والبضائع الرديئة كما تقول النظرية الاقتصادية تطرد البضائع الجيدة من السوق . والغريب أن هذه نظرية تحققت فى عالم الأغانى وفى عالم الأدب أيضا ، فالإنتاج الأدبى القوى لايتداول ولا ينتشر فى الحركة الفكرية المصرية وان كان يحيا ويخلد ولكن فى زمن غير زمنه .

والدليل على هذا أن فى جو أغانينا المصرية نشيدين وطنيين لكبيرين من الأدباء لم تدم حياة انشادهما إلا مرات معدودات ثم خفتت أنغامهما ... ولماذا ؟ لأن فيهما عناصر القوة الأدبية و لامح الفنون الرفيعة ، وكلتا الخاصتين كما قلت لا يهضمها الملحن فيعجز عن وضع موسيقا لها ، ولا يحسهما المستمع فيسأم منهما ، ولا يطرب لهما القارئ على ندرته فيتنحى ! إن الأدب العربى عامة والأدب الحديث خاصة محشود بالقطع الغنائية الرائعة ففيها الوطنية والحماسة وريح التضحية وايثار النفع العام، ثم فيها تصوير العواطف الانسانية على اختلاف نزعاتها وفيها القصص والتمثيل الذى يعالج المشاكل الاجتماعية القومية .

فى هذا الأدب عامة ثروة طائلة وبخاصة فى انتاج بعض شعراء هذا العصر فأين من يستسيغ هذا وأين من يختاره ؟ سيسخر منه الملحن إذا رآه لأنه لاعهد له بمثله ! وستتجهم له محطة الإذاعة لأن أنواء المغنيات لا تحمله ! !

ومن الأغانى الأناشيد واننا لأشد الأمم فقرا الى الأناشيد ، الى الأناشيد الريفية التى تجمل طابع الريف وتصور نيله وقطنه وقمحه وربيعه وخيراته وجاموسه وبقره ، وتصور ساعد فلاحه ونشاطه وتمجد ذراعه وساقه وتشيد بجهوده وعرقه ، وتكرم الفلاحة فى صباحها ومسائها ووراء ماشيتها وفى عقر دارها .

نحن فى حاجة الى أناشيد للعمال ، أناشيد للصناعة الحية تمجد الصناع وتشجعهم وتشيد بذكرهم وتصور مفاخر الصناعة فى الماضى وأملها فى الحاضر والمستقبل ، نريد أناشيد للصناع يتغنون بها فى أوقات فراغهم ... فى حاجة الى أناشيد للنشء الصغير ، أناشيد ليس من الضرورى أن تكون كلها وطنية ، فنشيد وطنى واحد يكفى لكل طبقات الشعب جنديا وزارعا وصانعا وتلميذا ، ولكن نريد أناشيد للدرسة والبيت واللعب وكل ما يقع عليه حسه فى العالم المحيط به . نريد كل هذه الأناشيد على اختلاف صنوفها لتدرس فى المدارس مع الطفولة . ولتغنى فى كل وقت وكل مكان ولتكون جزءا جوهريا من مناهج التعليم وليس أشد نكبة من أن يكون شعار الغناء عندنا " يالوعتى " " أو بلاش تبوسنى " وانك لترى التلميذ متأبطا كتبه ، محاصرا زميله يغنى فى فتور ورخاوة " يالوعتى " وأعجب من هذا وذاك أن تسمعها من العامل... العامل الذى تأبى رجولته وفتوته أن يعرف اللوعة ، ويأبى اجتماعنا وغناؤنا إلا أن نلبسها فى روحه دسا فى لحن لين متكسر .

أما نكبة هذا الغناء فى نفوس فتياتنا ، وأما مكانته فى قصور الأغنياء ومنازل الفقراء فحلها جانبا ...

من هذا العرض السريع تبين أن آفات الأغانى عندنا هى التأليف الغنائى والملحن والذوق الفنى لبعض الجمهور . وكل تفكير لإصلاح الأغانى يجب أن يتناول هذه النواحى الثلاثة وأولها : التأليف الغنائى .

وما أظن أن التفكير فى علاجه مستحيل وليس هو بالأمر العسير . وان من الحكمة أن يشغل اصلاح هذه الأغانى اذهان المفكرين فى الأمة لأنها جزء جوهرى من حياة الشعب النفسية ، وعلى أسمها تربى العاطفة القومية بل منها تتكون الوطنية بألوان قوتها وضعفها ، فوق أنها الغذاء الفنى للروح والعناصر الأولى لتربية الأذواق ومن أوضح طرق العلاج وأيسرها لألفاظ الأغانى ما يأتى :

(أولا) الرقابة التامة على التأليف الغنائى ، وأعنى بها النظر فى كل مقطوعة غنائية شعرا كانت أو ما يشبهه من حيث ألفاظها ومعانيها وغايتها ، بحيث لا تمر قطعة واحدة من مؤلف الى ملحن ثم الى مغن إلا بعد أن تنال القبول شكلا وموضوعا لدى هذه الرقابة .

(ثانيا) أن يكون أعضاء لجنة الرقابة من الشعراء والأدباء ومن عرفوا ببحوثهم الاجتماعية ونحن والحمد لله لا ينقصنا هؤلا . فهم كثير وجهودهم فى الأجواء الأدبية والاجتماعية معروفة مشكورة .

(ثالثا) أن تكون هذه الرقابة تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية ، وأن يعطى لها حق الاقتراحات التى تكفل بها تصفية هذه الأغانى وتهذيبها من السقط وتطهيرها من الجراثيم وأنا كفيل أننا سنخرج بعد هذه الرقابة بمحصول وافر من الأغانى فى جميع ألوانها ونزعاتها وسيكون هذا المحصول عالى الأداء رفيع المعنى صافى التعبير واضح الغاية .

والمطالبة بوجود هذه الرقابة ليست بدعا أو خلقا جديدا ، فهناك هذه الرقابة عينها فى وزارة المعارف تشرف إشرافا تاما دقيقا على ما يلقى فى محطة الاذاعة من المحاضرات بجميع أنواعها وعلى ما يلقى من الشعر والقصص والمقطوعات التمثيلية ، ولقد نجحت هذه الرقابة فى إشرافها بما بذلت من جهود فى التهذيب والدقة والاختيار .

هذه بعض نواحى وجوه الاصلاح للتأليف الغنائى ، ولا أدعى أنها كل شىء ، أو أنها صفوة التفكير وغاية التوفيق ، ولكنها على الأقل تصلح أساسا للتفكير فى هذه الناحية ، وتصلح خطوة أولى فيما نريد من اعتناء أولى الأمر بأغانى الشعب ، وهى كما قلت فى وضعها الحالى بعض الأعراض الاجتماعية عندنا .

وثانيها التلحين :

ولدينا فى مصر ملحنون لا يعدون ، ولكن الذى يعرف فنه منهم عدد أقل من أصابع يد واحدة ... يعرف فنه فيجيد أحيانا فيما يلحن إجادة جديرة بالإعجاب ، ويخفق أحيانا أخرى فيستحق النقد الشديد ... لدينا ملحنون لا يعدون يعرفون — فقط — كيف توضع ألفاظ

الغناء فى نغم أى نغم ... وفى لحن أى لحن ، وهم معذورون فيما يصنعون ما دام لقب الملحن لقبا شائعا يستطيع أن يحمله كل من حرك بأصابعه أوتار العود ! ! والتلحين كما قلت - يتطلب فهما لمدلولات الألفاظ ، ويتطلب إدراكا للمعانى وإحساسا بالغاية التى تنشدها من الغناء ، وعلى أساس المعنى وإدراكه والاحساس به إحساسا سليما يوضع النغم فيصيب ، وما أظن أن النظر فى الانهاض بهؤلاء الملحنين أمر عسير ، ويمكن أن أعرض فى إصلاح أمرهم ما يأتى :

(أولا) لدينا دار اسمها " معهد الموسيقى الملكى " فى هذا المعهد ملحنون وموسيقيون قدماء وجدد فى ميولهم الفنية حسب الموسيقى ومعرفتها ، وهذا المعهد تشرف عليه وزارة المعارف إشرافا محدودا وتمده كل عام بمساعدة مالية كبيرة ، أفلا تفكر هذه الوزارة فى تنظيم هذه الدار تنظيما جديدا ، فتدخل على المناهج الموسيقية فيه مناهج للثقافة الضرورية للفنان ثم للثقافة الأدبية التى لها صلة بالموسيقا كالأدب وجماله ، والشعر ونظمه وفنونه ، والقصص الروائى والتمثيلى وغايته ، فالملحن لو فهم معنى جمال الأدب وتذوقه ، ولو حفظ شيئا منه مختارا ، ولو وقف على تاريخ الشعر العربى بقدر وجيز ، ولو درس دراسة محدودة لشعر الأندلس وموشحاته بما فيه من فنون وأشكال للأوزان المتعددة ، أقول لو أخذ الملحن من كل هذا شيئا يسيرا لاستنار فكره وصفا ذهنه وأحس بالذوق الفنى ينبض فى مواهبه فيساعده هذا على تنمية الاستعداد الفنى الذى دفعه إلى هذه الطريق .

وهذا تشريع يلقى على عاتق وزارة المعارف ، فعليها تنظيم دراسة ثقافية بجانب الدراسة الموسيقية وعليها الإشراف على تعليم الموسيقى بهذا المعهد .

(ثانيا) دراسة الموسيقى فى هذا المعهد دراسة شائقة غير مقيدة ، ويحسن أن تنتقى الوزارة مدرسين اخصائيين مقيدين بمناهج عليهم أداؤها أداء كاملا تحت إشرافها ، على أنه لا ينبغى أن نتجاهل أثر لموسيقى الغربية والموسيقى الشرقية فى الأقطار الأخرى ، فلو كان لهذا وتلك مدرسون يتعاونون فى تعليم أبناء هذا المعهد لكان لنا فيهم مواهب مطعمة بأكثر من لون واحد من الفنون ، والموسيقى العربية صالحة جدا للتطعيم .

بهذه الطريقة نستطيع أن ننتفع بكثير من المواهب الفنية فى الشباب الذى يلج باب هذه الدار صباح مساء ، وبهذه الطريقة عينها نستطيع أن نمحو من الجو الموسيقى العنصر الغانى الردئ الذى يندس بين أفراد هذا الفن فيشوه الموسيقى والتلحين .

أما المغنون والمغنيات ، فهؤلاء قوم يملكون حاجرهم فحسب ، وما عليهم إلا أن يرددوا ويحاكوا ما يرسم لهم من الألحان ، ولكن يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن طبيعة التلحين أحيانا قد تشوه صوتا هو فى ذاته جميل ، فاليقظة والحرص على إصلاح التلحين وترقيته قد تسمعنا من الأصوات أعذب مما نسمع ، وقد نستريح إلى هذه الأصوات ونألفها أكثر مما نفر منها الآن ونستاء ! !

بقى الذوق الفنى للشعب وهو ثالث الأدواء :

ذوق الكثير منا مريض ومشوه كما قلت. وقد يبدو هذا الذوق فى المدن المصرية أكثر منه فى الريف وما يشبهه، بدليل ان الأغانى الريفية معظمها جيد الكلام والمعنى جيد اللحن والتلحين، حتى أن بعضه ليأخذ بالألباب ويستهوى الأفئدة ويحرك العواطف ويوقظ الشعور، وهى فى جملتها أذواق ينقصها الإحساس الفنى السليم، ومن المستطاع العمل على ترقيتها ولو الى حد مقبول .

ومن وسائل الترقية :

(أولا) : تهذيب الأغانى واختيارها على الوجه الذى ذكرته فى هذا المقال، وأنا لا أنكر أن هـذه الأذواق التى عاشت زمنا طويلا تتغذى من هـذه الأغانى المريضة سوف تتأذى وتتقاسى اذا طلعنا عليها بالأغانى العاليـة فى ألفاظها ومعانيها وتلحينها ؛ ولكن الذى أقره أن الأذواق تراض وتعالج كما يراض الخلق وكل حاسة من حواس الجسم ، تراض وتعالج المرة بعد المرة حتى تألف وتتعود ثم تأخذ فى مراحل التهذيب والنمو .

فلتكن كما كانت " الطقاطيق والمنولوجات والأناشيد والمواويل وما يشبهها " للطبقات التى تستعذبها، وللتمثيل فى الروايات الشعبية ولكن بعد أن تهذب الفاظها بحيث لا يصعب على غير المتعلمين فهمها ، وبعد أن نمحو منها من المعانى ما يوحى بالذلة والخضوع والليونة .

(ثانيا) : احياء الشعر الغنائى العربى ، وهـذا أصلح غناء وأعذبه للذوق المهذب وللإذاعات العامة ولا أقصد بالشعر العربى شعرنا الحديث وحده ولكن أقصد الشعر العربى عامة على اختلاف عصوره ، فلوضع أن تكون هناك رقابة على الأغانى فليكن جانب من تلك الرقابة خاصا باختيار ما يصلح من الشعر العربى للغناء .

(ثالثا) الإكثار من إذاعة الأناشيد فى الحفلات العامة والخاصة ، ولغة الأناشيد غالبا أسلم وأصفى من لغة الأغنيات الأخرى ، وإذاعتها بكثرة على الشعب يضمن لنا تذوق اللغة الصحيحة أو القريبة من الصحيحة ، كما يضمن لنا كثيرا من المعانى المهذبة أو القوية ، واللغة والمعنى هما ما نوجه إليهما اهتماما خاصا ليتعود الشعب سماعهما المرة بعد المرة ، فيرقى الإحساس قليلا . ويتنبه الذوق السليم تبعا لرقى الإحساس .

وبعد ، فهذا عرض سريع لأغانينا . وإجمال وجيز لما نرجوه من إصلاح الأغانى والعناية بتلحينها والعمل على رفع المستوى الفنى للحنين ، ومحاولة تهذيب الذوق الفنى للشعب ، والقصد إلى إحياء الشعر الغنائى العربى ، والحرص على المواهب الفنية فى بعض الشباب الموسيقى بما نعده له من نظم ودراسات .

فايد العمروسى